

الجوار فى صدر الإسلام

(١ هـ - ١١ هـ)

دراسة حضارية تاريخية

د / على محمد على البتانونى

{ مدرس التاريخ الإسلامى

كلية الآداب - جامعة القاهرة / فرع الخرطوم }

● مقدمة :

يستند هذا البحث - الجوار فى صدر الإسلام - مع إيجازه إلى الاستقراء المتأنى للمصادر العربية ، وخاصة مصادر التاريخ الإسلامى والأدب ، هذا مع الاستئناس طبعاً بالقرآن الكريم ، وكتب التفسير والحديث ، وكذلك المصادر التاريخية القديمة الأخرى مما يلقى الضوء على هذا الموضوع .

والجار ، هو البحث عن ملاذ يحمى الضعفاء من بطش المستبدين والأقوياء ، وهى العناصر التى دفعت حق الملجأ أو الإيواء إلى الوجود وظلت سنداً له فى مختلف عهود التاريخ .

وفكرة الملجأ بذلك قديمة قدم البشرية ذاتها ، فهى ملازمة فى الواقع للتعاسة والاضطهاد ، وسعى المرء إلى ملجأ للحماية والأمان قد يتخذ أحد طريقين :

إما عبر الحدود إلى إقليم آخر - ويطلق عليه الملجأ الخارجى - الملجأ الإقليمى ، أو صورة الالتجاء إلى مكان ذى حرمة فى ذات إقليم الدولة ويطلق عليه الملجأ الداخلى .

ومن ناحية التدرج التاريخى ، فالظاهر أن الملجأ الداخلى كان أسبق فى الاستقرار كنظام معترف به لدى الشعوب القديمة ، وكانت تسانده حينذاك المعتقدات الدينية والحرمات الخاصة التى كانت تتمتع بها الأماكن المقدسة ، من ذلك ما أخبر به القرآن الكريم عن هذا النوع من الجوار : ﴿ وإذ جعلنا البيت مثابة

للناس وأمناً» (١) ، أى مكان آمن يأمن من لجأ إليه ، وذلك لما أودع الله فى قلوب العرب من تعظيمه وإجلاله ، وعند فتح مكة قال النبى ﷺ : « من دخل المسجد الحرام فهو آمن ، ومن دخل بيت أبى سفيان فهو آمن » (٢) .

على أنه من الثابت تاريخياً أن ممارسة الملجأ الإقليمى كانت شائعة لدى الإغريق القدماء ، وأن المدن الإغريقية كانت تدافع بقوة عن حقها فى فتح الملجأ للأشخاص الذين يقصدونها للاحتماء بها ، وأنها كانت تعتبر الدفاع عن هذا الحق بمثابة دفاع عن شرفها .

وفى مقدمة هذه المدن « أثينا » ذاتها ، وكانت تفخر بأنها تتحدى أى شعب يحاول أن يمس اللاجئين إليها ، وتعتبر من العار أن يسلم لاجئ متوسل إليها إلى الغير فتدافع عنه دون خوف أو وجل ، ويقال كذلك إن بلدة « تيروس » فى آسيا الصغرى أفلحت فى أن تحصل على اعتراف البلاد المحيطة بها بحقها كذلك فى فتح الملجأ (٣) .

ونعتقد أنه كان هناك عامل آخر ساهم فى تدعيم وتطوير الملجأ الإقليمى ، هو واجب الضيافة والإيواء الذى كان يعتبر حقاً وواجباً ، له قدسيته وإلزامه فى المجتمعات القديمة .

وقد قسمت البحث إلى مبحثين وخاتمة ، والمبحث الأول حاولت فيه أن أقدم صورة مركزة عن الجوار عند العرب فى الجاهلية ، وأنه كان من أهم السنن التى حافظ عليها الجاهليون العرب ، واعتادوها كالقوانين فكانت الغاية منه طلب الحماية والمحافظة على النفس والأهل والمال .

كما قدم المبحث فى مبحثه الثانى صورة مركزة لجوار المسلمين فى صدر الإسلام ،

(١) سورة البقرة ، آية : ١٢٥ ، صفوة التفاسير - المجلد الأول - ص ٩٣ ، ٩٤ ، دار القرآن الكريم - بيروت .

(٢) ابن هشام - السيرة النبوية ، ج ٤ / ٢٢ وما بعدها - دار التراث العربى بالقاهرة .

(٣) د / على صادق أبو هيف - الالتجاء للسفارات والدول الأجنبية - مقال فى المجلة المصرية للقانون الدولى ، المجلد الثانى والعشرين عام ١٩٦٦ ، ص ١١٥ .

وأن الرسول ﷺ قد أخذ به بوصفه وسيلة لحماية النفس من خطر يودى بها من غير طائل نظراً للظروف الصعبة التى عاشها المسلمون فى وسط هذا المجتمع الوثنى الذى لا يرحم ، وفى وقت لم تكتمل فيه الأسباب للمسلمين ولم يؤمروا فيه بقتال ، وقد أجاز المسلمون الكفار بعد فتح مكة عام ٨ هـ بعد أن أمرهم الله بذلك فى القرآن الكريم : ﴿ وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ﴾ (١) .

وفى الخاتمة .. استخلصت كثيراً من النتائج المفيدة ، والتى من أهمها أن الإسلام لم يبلغ مرة واحدة كل عادات الجاهلية وتقاليدها ، بل أقر بعضها واعترف بوجودها وقيمها بعد تعديل بسيط فيما يتناسب مع مبادئ وأوضاع العصر والحياة الجديدة - ومنها الجوار - .

والله أسأل أن ينفع به ، وهو سبحانه من وراء القصد ، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

● المبحث الأول :

الجوار عند العرب فى الجاهلية

الجوار من السنن التى حافظ عليها الجاهليون واعتادوها كالقوانين ، فإذا استجار شخص بآخر أو استجارت قبيلة بأخرى ، اكتسب هذا الجوار صبغة قانونية ووجب على المجير المحافظة على حق الجوار ، وإلا نزلت السبة بالمجير وازدراه الناس .

ويكتسب الجوار حكمه بإعلان الطرفين قبولهم على الملأ فى أماكن الاجتماع فى الغالب فى مثل المواسم : من حج أو سوق ، فإذا أعلن ذلك ، وعلم الناس الخبر ، صار المجار فى ذمة المجير ، وترتب على المجير أن يكون مسئولاً عن كل ما يقع على المجير وما يصدر منه (٢) .

وقد ورد فى القرآن الكريم : ﴿ والجار ذى القربى ، والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل ﴾ (٣) ، والجار الجنب أن لا يكون له مناسب فيجىء إليه

(١) سورة التوبة ، آية : ٦

(٢) د / جواد على : العرب قبل الإسلام ج ٤ / ٣٦٠ وما بعدها ، دار العلم للملايين بيروت ، الطبعة الثالثة سنة ١٤١٠ هـ / ١٩٨٠ م . (٣) سورة النساء ، آية : ٣٦

وسأله أن يجيره ، أى يمنعه فينزل معه ، فهذا الجار الجنب له حرمة نزوله فى جواره ومنعته وركونه إلى أمانه وعهده لأنه جاوره ، وإن كان نسبه فى قوم آخرين ولا قرابة له به .

ولم يكن كل شخص يقبل أن يجير أى شخص أو قبيلة . فالناس كانوا يعرفون أقدارهم وقواهم ولا يتورطون فيما لا قبل لهم به لأنهم كانوا يرون فى ذمة الجوار وعصبيته أمراً خطيراً فيه كرامتهم بل وحياتهم ومماتهم ^(١) .

ويظل الجوار مرعياً إلى أن يرده المستجير إلى صاحبه الذى أجاره ويبرىء ذمته وجواره على ملأ الناس حتى إذا اعتدى بعد ذلك أحد لا يتحمل المجير ^(٢) تبعة هذا الاعتداء ، وإذا كان المستجير غريباً فيظل جواره مرعياً إلى أن يبلغ مأمنه أو أهله أو أرضه ^(٣) .

والغاية من الجوار طلب الحماية والمحافظة على النفس والأهل والمال ، لذلك لا يطلبه فى العادة إلا المحتاج إليه ، ولا يشترط فى الجوار نزول الجار قرب المجير أو فى جواره أى أن يكون بيته ملتصقاً ببيته ، فقد يكون على البعد كذلك ، لأن الجوار حماية ورعاية ، وتكون الحماية حيث تصل سلطة المجير ، وتراعى فيه حرمة وذمته ، ويكون فى إمكانه الدفاع عن جاره ، ولهذا كان على الجار أن يعرف حدود « الجوار » ^(٤) .

وفى القرآن الكريم بضع آيات ذكر فيها الجوار بهذا المعنى ، وذكر فيها بعض الأمور التقليدية التى كانوا يستعملونها فى صدده ، مما يساعد على تثبيت شئ من الصورة المرسومة ، فقد أعلن النبى ﷺ بأمر الله البراءة من المشركين يقول الله

(١) د . جواد على : العرب قبل الإسلام ج ٤ / ٣٦٠ وما بعدها ، دار العلم للملايين ببيروت ط الثالثة ١٤١٠ هـ - ١٩٨٠ م

(٢) الألوسى : بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب ج ١ / ٢٢ ، ١٤٦ ، مطابع دار الكتاب العربى بمصر .

(٣) الألوسى : بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب ج ١ / ١٢٢ ، ١٤٦ ، مطابع دار الكتاب العربى بمصر .

(٤) د . جواد على : العرب قبل الإسلام ج ٤ / ٣٦٠ - ٣٦٣

تعالى : ﴿ براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين ، فسيحوا في الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين ، وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله ، فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم ، إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين ، فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم ﴾ (١) .

فقد تضمنت هذه الآيات أن المشركين سيمهلون أربعة أشهر فمن كان له مع رسول الله ﷺ عهد خاص ، وبقي منه أقل من الأربعة أبلغ به تمامها ، ومن كان أمده أكثر أتم له عهده ، وإذا كان ممن تحسس منه نقض العهد قصر على أربعة أشهر ، ومن لم يكن له عهد خاص فرضت له الأربعة (٢) .

﴿ وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون ﴾ (٣) ، ولما أمر الله تعالى بقتل المشركين حيث وجدوا وأخذهم وحصرهم ذكر لهم حالة لا يقتلون فيها ولا يؤخذون ، وهي إذا جاء أحد من المشركين وطلب أن تكون مجيراً له وذلك بعد انسلخ الأشهر الحرم ليسمع كلام الله تعالى وما تضمنه من التوحيد ، ويقف على ما بعثت به فكن مجيراً له حتى يسمع كلام الله ويتدبره ويطلع على حقيقة الأمر (٤) .

وحينما أزمعت قريش الخروج إلى بدر خافوا أن يغدر بهم بنو كنانة من خلفهم لما

(١) سورة التوبة ، آية : ١ - ٥

(٢) أبو حيان الأندلسي : تفسير النهر الماء ج ١ / ٩٤٥ - المكتبة الشقافية بيروت ، ١٤٩٧ هـ /

١٩٨٧ م .

(٣) سورة التوبة ، آية : ٦

(٤) أبو حيان الأندلسي : تفسير النهر الماء ج ١ / ٩٤٩ .

كان بينهم من دماء فتبدى لهم إبليس فى صورة زعيم من زعماء كنانة وقال : « أنا جار لكم من كنانة فلن تروا منهم ما تكرهون » (١) ، فحكى ذلك هذه الآية : ﴿ وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم ﴾ (٢) .

وتعبير : إني جار لكم من تعابير الجوار التقليدية حيث يتقدم من يريد أن يحمى طالب جواره فيعلن أنه جار فلان ، أو يتقدم من يريد أن يعلن حمايته لبعض الناس ويتحدى خصومه فيقول لهم : « إني جار لكم » .

وهناك آية فى صدد وصف قوة الله بأن يجبر ولا يجار عليه : ﴿ قل من بيده ملكوت كل شيء ، وهو يجبر ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ﴾ (٣) .

وقد ورد فى كتب اللغة : يقال للذى يستجير بك « جار » والجار الذى أجرته من أن يظلمه ظالم . وجارك المستجير بك ، والمجير هو : هو الذى يمنحك ويجيرك . وأجاره : أنقذه من شيء يقع عليه (٤) .

وقد أعزوا الجار والحليف حتى أنه كان يعد من العشيرة ، ولذا كان المجير يرثه فى ماله . وقادوا فى حماية الجار حتى حمايته من الموت ، فإذا مات دفع حاميه ومجيره ديتة إلى أهله ، فقد روى : « أن الأعشى خاف بنى عامر على ما معه من عطايا فأتى علقمة بن علاثة فقال له : أجرنى ، فقال : أجرتك . قال : من الجن والإنس . قال : نعم . قال : ومن الموت . قال : لا . فأتى عامر بن الطفيل فقال : أجرنى . قال : قد أجرتك . قال : من الإنس والجن . قال : نعم . قال : ومن الموت . قال : نعم . قال : إن مت وأنت فى جوارى بعثت إلى أهلِكَ الدية . فقال : الآن علمت أنك قد أجرتنى من الموت فمدح عامراً وهجا علقمة » (٥) .

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ج ٢ / ٢٥٠ ، طبع دار التراث العربى .

(٢) سورة الأنفال ، آية : ٤٨ (٣) سورة المؤمنين ، آية : ٨٨

(٤) الزبيدي : تاج العروس - تحقيق محمود محمد طحاجى - مطبعة حكومة الكويت ج ٣ / ١١١

(٥) الأصفهاني : الأغاني ج ٨ / ٨ دار الكتب المصرية . « جار » .

وقد بالغوا في حمايتهم للجار ، فرووا : « أن مدليج بن سويد الطائي خلا يوماً في خيمته ، فإذا هو يقوم من طيء ومعهم أوعيتهم ، فقال : ما خطبكم ؟ قالوا : جراد وقع بفنائك فجئنا لنأخذه ، فركب فرسه وأخذ رمحه وقال : والله لا يعرضن له أحد منكم إلا قتلته . إنكم رأيتموه في جوارى ثم تريدون أخذه ، فلم يزل يحرسه حتى حميت عليه الشمس وطار ، فقال : شأنكم الآن ، فقد تحول عن جوارى ، وضربوا به المثل فقالوا : أحمى من مجير الجراد . ويقال إن المجير كان حارثة بن مر الطائي أبا حنبل وفيه يقول شاعر طيء :

ومنا ابنُ مَرٍّ أبو حنبل أجار من الناس رَجُلَ الجراد
وزيدٌ لنا ولنا حاتمٌ غياث الوري في السنين الشَّداد ^(١)

كما أجاروا الحيوانات المفترسة - كمجير أم عامر - كان من حديثه أن قوماً خرجوا إلى الصيد في يوم حار ، فإنهم كذلك إذ عرضت لهم « أم عامر » وهي الضبع فطردوها وأتبعتهم حتى ألجأوها إلى خباء أعرابي فاقترحتهم ، فخرج إليهم الأعرابي ، وقال : ما شأنكم ؟ قالوا : صيدنا وطريدتنا ، فقال : كلا ، والذي نفسى بيده لا تصلون إليها ما ثبت قائم سيفى في يدي ، قال : فرجعوا وتركوه ، وقام إلى لقحة فحلبها وماء فقرب منها ، فأقبلت تلغ مرة في هذا ومرة في هذا حتى عاشت واستراحت ، فبينما الأعرابي نائم في جوف بيته إذ وثبت عليه فبقرت بطنه ، وشربت دمه وتركته ، فجاء ابن عم له يطلبه فإذا هو بقر في بيته ، فالتفت إلى موضع الضبع فلم يرها ، فقال : صاحبتي والله فأخذ قوسه وكنانته وأتبعها ، فلم يزل حتى أدركها فقتلها وأنشأ يقول :

ومن يصنع المعروف في غير أهله يلاق الذي لاقى مجير أم عامر
أدام لها حين استجارت بقره لها محض ألبان اللقاح الدرائر
وأسمنها حتى إذا ما تكاملت قرته بأنيباب لها وأظافر
فقل لذوى المعروف هذا جزاء من بدا يصنع المعروف في غير شاكر ^(٢)

(١) الميداني : الأمثال ج ١ / ٢٢١ ، دار المعرفة بيروت / لبنان ١٣٧٤ هـ / ١٩٥٥ م

(٢) المصدر السابق ج ٢ / ٤٤٢

ولكنهم لم يجيروا الملوك ، فقد أوصى حصين بن حذيفة بن بدر أولاده ، وهو يحتضر ، وجاء في نصحه لهم ، ولا تجيروا على الملوك ، فإن أيديهم أطول من أيديكم (١) .

وافتخر بحمايته ، وقال عبيد بن الأبرص :

إنا لعمرك لا يُضَا
م حليفنا أبداً لدينا

وقال :

نحمى حقيقتنا ونمنع جارنا
ونلف بين أرامل الأيتام (٢)

وقد كان الاعتداء على الجار مغضبهم ومثيراً لحفيظتهم كأنه اعتداء عليهم ، وإذا حدث يمتشقون الحسام للذب عن الشرف الممتن والانتقام من المتجرىء على الجار المحمى ، ولذا مدحوا بالذب عن الجار فقالوا : فلان منيع الجار حامى الديار ... وما يذكره الجاحظ أن قوماً فى الجاهلية من سخمه اعتدوا على جار لأسد بن كرز فأوقع بهم وافتخر بحماية جاره :

وما جار يبتى بالذليل فترجى
ظلامته يوماً ولا المتهضم (٣)

وكانت حماية الجار دليلاً على الرهبة والقوة ، وإن قل عدد أفراد القبيلة ، قال السموأل :

وما ضرنا أنا قليل وجارنا
عزيز وجار الأكثرين ذليل (٤)

ولم يقتصر فخرهم على حمايتهم للجار ، بل تناول تنعمه بخيراتهم . قال عدى بن يزيد بن حمار السكونى بن شيبان فى حديثه عن يوم ذى قار (*) ، بأنهم يخلطون جارهم بأنفسهم ، ويكرمونه ويحمونه :

(١) أبو على إسماعيل القالى البغدادى : الأمالى ج ٢ / ١٦٨

(٢) ديوان حاتم الطائى ص ٤ ، طبع بيروت سنة ١٣٨٣ هـ / ١٩٥٣ م

(٣) الجاحظ : البيان والتبيين ج ٢ / ٢١٧ (٤) المصدر السابق : ج ٣ / ١٢١

(*) موقعة « ذى قار » كانت بين العرب والفرس ، وانتصر فيها العرب ، التفاصيل : ابن الأثير : الكامل ج ١ / ٣٧٤ - ٣٨٠ ، دار الكتب العلمية بيروت سنة ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م .

إني حمدتُ بنى شيبان إذ خدمتُ نيرانُ قومي وفيهم شُبت النارُ
ومن تكرمهم في المحل أنهم لا يعلمُ الجار فيهم أنه الجار
حتى يكون عزيزاً من نفوسهم أو أن يبين جميعاً وهو مُختار
كانه صدَّع في رأس شاهقة من دونه لعتاق الطير أوكار (١)

وكان أمراً مهيناً جداً أن ينكث حليف بعهد ، أو ينقض حام ذمة عقدها لجاره
فإنهم كانوا إذا غدر منهم أحد رفعوا له لواء بسوق عكاظ ليُشهرُوا به ، وفي ذلك
قيل في خطبة ابن أوس بن محصن بن جرول « الحادرة » :

أسميُ ويحك هل سمعت بَعْدَرة رُفِع اللّواءُ لنا بها في مجمع
إنا نَعْفُ فلا تُريب حليفنا ونكُفُّ شُح نفوسنا في المطمع (٢)

أما السنن التي كانت شائعة بينهم فهي للحليف نصف دية الصريح ، وقد نشبت
حرب بين الأوس والخزرج ، لأن مالك بن عجلان رفض أن يأخذ من بنى عوف في
جاره إلا الدية كاملة ، فاحتكموا إلى ثابت بن المنذر - والد حسان - فقال :
للصريح ديته وللحليف نصفها (٣) .

وما حلف الفضول الذي شهده رسول الله ﷺ إلا نوعاً من الجوار لكل القادمين
إلى مكة ، فقد ذكر ابن إسحق :

« تداعت قبائل قريش إلى حلف ، فاجتمعوا له في دار عبد الله بن جُدعان
لشرفه وسنه ، فكان حلفهم عنده ، بنو هاشم ، بنو المطلب ، وأسد عبد العزى ،
وزهرة بن كلاب ، وقيم بن مرة ، فتعاقدوا وتعاهدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلوماً
من أهلها وغيرها ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه ، وكانوا على من ظلمه
حتى ترد عليه مظلّمته ، فسَمَت قرش ذلك الحلف « حلف الفضول » وقال رسول الله
ﷺ : « لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لى به حمر النعم
ولو أدعى به في الإسلام لأجبت » (٤) .

(١) أبو تمام : ديوان الحماسة ج ١ / ١٠٨ ، مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٤٦ هـ / ١٩٢٧ م

(٢) الفضل بن محمد الضبي : المفضليات ، تحقيق شاکر / وهارون ، مطبعة المعارف ، ج ٢ / ٤٣ ،

(٣) الأصفهاني : الأغاني ج ٢ / ١٧٠ .

(٤) ابن هشام : السيرة النبوية ج ١ / ١٤٤ - ١٤٥ ، دار التراث العربي .

يستبين من هذا العرض أنه كان للجوار أهمية كبرى عند الجاهليين العرب وتقدير وحرمة ، فإذا استجار شخص بشخص آخر أو قبيلة وقبل جاراً ومستجيراً ، وجبت بلا ريب حمايته ، وحق على المستجار به الدفاع عن مجيره مهما كلفه الثمن وإلا عد ناقضاً للعهد ، ناكثاً بالوعد ، مخالفاً للتقاليد العريقة عند العرب ، والجوار فى نفس الوقت يعد واجباً من واجبات الضيافة والإيواء الذى كان يعتبر حقاً وواجباً له قدسيته وإلزامه فى المجتمعات القديمة .

* * *

● المبحث الثانى :

الجوار فى صدر الإسلام

لما بلغ القرشيون ما أكرم الله عز وجل به رسوله ﷺ من النبوة ، راعهم ذلك وكبر عليهم ، فأظهروا استياءهم من جهره بالدعوة إلى وحدانية الله خشية القضاء على عبادة الأوثان التى كان وجودها فى الكعبة مصدراً لثرائهم ، فعملوا على مناهضته وعادوه ، لكن الله « عز وجل » صان رسوله الكريم بعمه أبى طالب الذى كان شريفاً فى قومه مطاعاً فيهم فصدهم عنه .

ولما رأى القرشيون أن أبا طالب عم الرسول ﷺ لم يتعرض لدعوته ، بل ظل يعطف عليه ، ويحرص على صد كل أذى عنه ، سار إليه فريق من أشrafهم يسألونه أن يكف عنهم رسول الله ﷺ ، وقالوا له : إن ابن أخيك قد سب آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفه أحلامنا .. ، فإما أن تكفه عنا ، وإما أن تخرى بيننا وبينه ، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلاف . فرد عليهم أبو طالب رداً جميلاً ، فأنصرفوا عنه ومضى رسول الله ﷺ ينشر دعوته (١) .

ذاعت دعوة الرسول ﷺ بين أهالى مكة ، وكثر التحدث عنه بين القرشيين وصار يحرض بعضهم بعضاً عليه ، ثم استقر رأيهم على أن يشكوه إلى عمه أبى طالب مرة أخرى لعله ينصرف عن التعرض لمعبوداتهم ، فذهب إليه وفد منهم وقالوا له :

(١) المقرئى : إمتاع الأسماع ج ١ / ١٨ ، شرح محمود شاكر - القاهرة ١٣٧١ هـ / ١٩٤١ م

... وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك ، لم تنهه عنا ، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أعلامنا ، وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا أو ننازله » (١) ، ثم انصرفوا عنه ، فعظم على أبى طالب فراق قومه وعداوتهم ، وبعث إلى الرسول وحده عما قاله قومه ، فظن أنه قد ضعف عن نصرته ومؤازرته وقال له : « يا عم والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته » . فقال له أبو طالب : « اذهب يا ابن أخى فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك بشيء أبداً » (١) .

ونرى أن مناصرة أبى طالب لابن أخيه الرسول الكريم يعتبر من واجبات الرئيس باعتباره زعيماً لبنى هاشم وبنى عبد المطلب ، لكننا فى نفس الوقت نعد هذه المناصرة نوعاً من الجوار لأن قريشاً لم تنل من رسول الله ﷺ إلا بعد وفاة عمه أبى طالب (٢) .

ثم إن الإسلام جعل يفشو بمكة ، فى قبائل قريش فى الرجال والنساء ، وقريش تحبس من قدرت على حبسه ، وتفتن من استطاعت فتنته من المسلمين (٣) . وكان كفار قريش يضربون المسلمين ، ويضعون الصخور العظيمة على صدورهم فى شدة الحر فلم يزددهم ذلك إلا إيماناً ، هذا ، ورسول الله ﷺ يدعو إلى الله ليلاً ونهاراً سراً وجهراً ، لا يصدده عن ذلك صاد ، ولا يأخذه فى الله لومة لائم (٤) .

ولما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء ، وما هو فيه من العافية ، وأنه لا يقدر على أن يمنهم ما هم فيه من البلاء ، قال لهم : « لو خرجتم إلى أرض الحبشة ، فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد ، وهى أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم مخرجاً مما أنتم فيه ، فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة ، وفراراً إلى الله بدينهم ، فكانت أول هجرة فى الإسلام (٥)

(٢) المرجع السابق ج ٢ / ٢٦

(١) ابن هشام : سيرة النبى ج ١ / ٢٧٨

(٣) المرجع السابق ج ١ / ٣٣٩ - ٣٤٠

(٤) المقرئى : إمتاع الأسماع ج ١ / ١٨ ، القاهرة سنة ١٣٧١ هـ / ١٩٤١ م

(٥) ابن هشام : السيرة النبوية ج ١ / ٣٤٣ - ٣٥٢

فخرج أحد عشر رجلاً وأربع نسوة متسللين إلى الشعبية (*) فركبوا سفينتين لبعض التجار إلى بلاد الحبشة ، وخرجت قريش فى آثارهم فلم يدركوا منهم أحداً (١) .
وإلى هذه الهجرة أشارت هذه الآيات الكريمة : ﴿ والذين هاجروا فى الله من بعد ما ظلموا لنبوئتهم فى هذه الدنيا حسنة ، ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴾ (٢) .

ونرى أنه نظراً لعدم وجود المجير فى شبه الجزيرة العربية ، الذى يقبل إجارة المسلمين ، ودينهم يخالف ديانتهم الوثنية ، وأن الاتصال بالمدن الأخرى أو بالدول فى شبه الجزيرة العربية كانت تعتبره قريش خطراً عليها ، ولقريش مركز كبير بين القبائل العربية ، من جراء سيادتهم على الكعبة ، وكذلك لما تتمتع به مكة من موقع جغرافى ، فهى عقدة تتجمع فيها القوافل التى ترد من شبه الجزيرة العربية الجنوبية تبغى بلاد الشام ، أو القادمة من بلاد الشام إلى شبه الجزيرة العربية الجنوبية ، لذا أمرهم صلى الله عليه وسلم بالهجرة إلى الحبشة خاصة وأن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد ، وأنهم لسوف يجدون عنده ملجأ للحماية والأمان وهو ما اصططح عليه بالملجأ الخارجى .

على أن بعض المهاجرين المسلمين إلى بلاد الحبشة ما لبثوا أن أزمعوا العودة إلى مكة حين شاع بينهم نبأ دخول قريش فى الإسلام ، فلما قرب المسلمون الذين كانوا بالحبشة من مكة بلغهم أن إسلام أهل مكة باطل ، فلم يدخل أحد منهم إلا بجوار أو مستخفياً ، فدخل عثمان بن عفان فى جوار أبى أميعة سعيد بن العاص بن أمية فأمن بذلك ، ودخل أبو حذيفة بن عتبة بجوار أبيه ، ودخل عثمان بن مظعون بجوار الوليد بن المغيرة ، ثم قال أكون فى ذمة مشرك .. جوار الله أعز ، فرد جواره . وكان لبيد بن ربيعة ينشد قريشاً قوله : « ألا كل شىء ما خلا الله باطل » ، فقال عثمان : صدقت ، فلما قال وكل نعيم لا محالة زائل . قال : « كذبت نعيم الجنة لا يزول » ، فقال لبيد : « يا معشر قريش ما كانت مجالسكم هكذا ، وقال : « لا كان السفه من شأنكم » ، فأخبروه خبره وخبر نعته . فقام بعض بنى المغيرة فلطم عين عثمان ، فضحك الوليد شماتة به حيث رد جواره ، وقال : ما كان أغناك عن هذا .

(*) الشعبية : مرفأ بمكة مرسى سفنها قبل جدة . (١) القرئزى : إمتاع الأسماع ج ١ / ٢٠

(٣) سورة النحل ، آية : ٤١ - ٤٢

فقال : إن عيني الأخرى لمحتاجة إلى ما نال لمثل هذا ، فقال له : « هل لك أن تعود إلى جوارى ؟ » . قال : لا أعود إلى جوار غير الله ، فقام سعد بن أبي وقاص إلى الذي لطم عثمان فكسر أنفه . فكان أول دم أريق في الإسلام ^(١) .

وأما أبو سلمة بن عبد الأسد فقال ابن إسحق ، فقالوا : « يا أبا طالب ، هذا منعت منا ابن أخيك محمد . فمالك ولصاحبنا تمنعه منا ؟ » قال : « إنه استجارني وهو ابن أختي ، وإن أنا لم أمنع ابن أختي لم أمنع ابن أختي » ، فقال أبو لهب : « يا معشر قريش والله لقد أكثرتم على هذا الشيخ ، ما تزالون تتواثبون عليه في جواره من بين قومه ، والله لتنتهين عنه أو لتقومن معه في كل ما قام فيه حتى يبلغ ما أراد » ^(٢) .

وأما عن جوار أبي بكر الصديق رضي الله عنه . تقول عائشة رضي الله عنها : قالت حين ضاقت مكة على أبي بكر ، وأصابه فيها الأذى ، ورأى من تظاهر قريش على رسول الله ﷺ وأصحابه ما رأى : « استأذن رسول الله ﷺ في الهجرة فأذن له ، فخرج مهاجراً حتى إذا سار من مكة يوماً لقيه ابن الدغنة أخو بني الحارث ، فقال ابن الدغنة : أين أبا بكر ؟ قال : أخرجني قومي وأذوني ، وضيقوا على ، قال : ولم ؟ فوالله إنك لتزين العشيرة ، وتعين على النوائب ، وتفعل المعروف ، وتكسب المعدوم ، ارجع أنت في جوارى فرجع معه حتى إذا دخل مكة قام ابن الدغنة ، فقال : يا معشر قريش إني قد أجرت ابن أبي قحافة فلا يعرضن له أحد إلا بخير ، قالت : فكفوا عنه ... ولما تخوفت قريش على صبيانها ونسائها من قراءة أبي بكر ، طلب منه ابن الدغنة أن يدخل بيته ويصنع ما يشاء ، أو يرد عليه جواره ، فقال أبو بكر : فاردد على جوارى ، قال : قد رددته عليك ، فقام ابن الدغنة ، فقال : يا معشر قريش إن ابن أبي قحافة قد رد على جوارى ، فشانكم لصاحبكم ^(٣) .

● جوار رسول الله ﷺ :

فلما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تكن تنال منه

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٢ / ٥٣ ، دار الفكر ببيروت ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية ج ١ / ٢٧٩ ، دار التراث العربي .

(٣) ابن هشام : السيرة النبوية ج ١ / ٣٩٤

فى حياة أبى طالب ، فخرج رسول الله ﷺ إلى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف والمنعة بهم من قومه ، ورجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله عز وجل ، فخرج إليهم وحده وجلس النبي ﷺ إلى سادتهم ، فدعاهم إلى الله وكلمهم بما جاءه ، وطلب منهم النصرة والقيام معه على من خالفه من قومه ، فلم يفعلوا وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونهم ، ويصيحون به ، حتى اجتمع عليه الناس وألجأوه إلى حائط لعتبة بن ربيعة ، ثم انصرف النبي ﷺ من الطائف راجعاً إلى مكة حين يئس من خبر ثقيف (١) .

ولما عاد النبي ﷺ من ثقيف أرسل إلى المطعم بن عدى ليجيره حتى يبلغ رسالة ربه ، فأجاره وأصبح المطعم قد لبس سلاحه هو وبنوه وأخيه فدخلوا المسجد ، فقال أبو جهل : أمجير أم متابع ؟ قال : بل مجير . قال : قد أجرنا من أجرت ، فدخل النبي ﷺ مكة وأقام بها ، فلما رآه أبو جهل قال : هذا نبيكم يا عبد مناف . فقال عتبة بن ربيعة : « وما ينكر أن يكون منا نبى وملك ؟ » (٢) .

ويلاحظ دخول الصحابة رضوان الله عليهم عقب عودتهم من الهجرة إلى الحبشة فى جوار المشركين ، وكذا عقب رحلة رسول الله ﷺ إلى الطائف ، لأنهم أصبحوا حسب أعراف العرب من « الخلعاء » ، والخلع يسقط عن أهله وقبيلته كل واجب يترتب عليهم أو عليها إذا عمل عملاً يستوجب خلعه ، كما تسقط عن القبائل التى قد تتعرض للخلع بشر كل تبعة تقع عليها من الاعتداء عليه لخلع أهله أو قبيلته له ، وتبرئهم أو تبرئها منه ، فلا يطالبون بثأر (٣) .

● جوار سعد بن عباد من زعماء الخزرج :

وذكر ابن هشام .. أنه بعد بيعة العقبة الثانية خرجت قريش فى طلب الأنصار بعد البيعة فأدركوا سعد بن عباد ، والمنذر بن عمرو ، وكلاهما كان نقيباً ، فأما المنذر ، فأعجز القوم ، وأما سعد فأخذه ، فربطوا يديه إلى عنقه بشسع رحله « الشراك

(١) المصدر السابق : ج ٢ / ٢٨ ، دار التراث العربى .

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج ٢ / ٦٤

(٣) د . جواد على : العرب قبل الإسلام ج ٤ / ٤١٠ ، الطبعة الثالثة بيروت .

الذى تُشدُّ به الرجل » ، ثم أقبلوا به حتى يسحبوننى إذ أدخلوه مكة يضربونه ، ويجذبونه بجمته . يقول سعد : فوالله إننى لفى أيديهم يسحبوننى إذ أوى إلى رجل ممن كان معهم فقال : ويحك أما بينك وبين أحد من قريش جوار ولا عهد ؟ قال : قلت : بلى والله ، لقد كنت أجير لجبير بن مطعم بن عدى ، وللحارث بن حرب بن أمية بن عبد شمس - تجارة ، وأمنعهم ممن أراد ظلمهم ببلادى ، قال : ويحك فاهتف باسم الرجلين واذكر ما بينك وبينهما ، قال : ففعلت وخرج ذلك الرجل إليهما فوجدهما فى المسجد عند الكعبة ، فقال لهما : إن رجلاً من الخروج الآن يضرب بالأبطح ويهتف بكما ، ويذكر أن بينه وبينكما جواراً . قالا : ومن هو ؟ قال سعد بن عبادة ، قالا صدق والله إن كان ليجير لنا تجارتنا ويمنعهم أن يظلمونا ببلده ، قال : فجاءا فخلصا سعداً من أيديهم وانطلق ^(١) .

● جوار أبى سفيان بن حرب :

ويبدو أن الجوار ظل مرعياً حتى فتح مكة فى السنة الثامنة الهجرية بدليل أن العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه قد أجاز أبا سفيان بن حرب ، وهو بغير عقد ولا عهد ، وأقر ذلك رسول الله ﷺ فلم يأمر عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - بضرب عنقه وظل فى جوار العباس حتى أسلم ، ودخل مكة يصبح فى الناس من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ^(٢) .

الخاتمة

* إن كل مجتمع له نظامه الذى ينسجم مع ظروفه وأوضاعه الخاصة ، والمجتمع البدوى عماده القبيلة بها يحتوى الأعرابى للدفاع عن ماله ونفسه ، حيث لا حكومة ولا رجال أمن ولا سجون يسجن فيها الخارجون على نظام المجتمع ، وكل ما فى القبيلة « عصبية » تأخذ بالحق و« أعراف » يجب أن تطاع ، ولا ريب أن بالعرف القبلى تسير الأمور - هذه الأعراف التى تناسب عقلية القبيلة تنتقل من جيل إلى

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ج ٢ / ٥٨ - ٥٩ دار التراث العربى

(٢) التفاصيل - المصدر السابق ج ٤ / ٢٠

جيل ، وتصبح قانوناً ودستوراً للقبيلة . والعربى من طبعه أن يحافظ على عادات آبائه وأجداده ولا يرغب فى تغييرها ، ولنا المثل الواضح من الرسول ﷺ الذى وجد مقاومة شديدة عندما كان يريد تغيير سننهم ، وهذا ما عرض به القرآن الكريم وسخر منه عندما حكى عنه قولهم : ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾ (١) .

* لم تقتصر النظم البدوية على تأثيرها فى نظم الحياة عند العرب فى الجاهلية ، بل استمرت وكان لها التأثير المباشر فى الإسلام . غير أنه فى الوقت نفسه أقر الإسلام بعض هذه العادات واعترف بوجودها وقيمها بعد تعديل بسيط فيما يتناسب مع مبادئ وأوضاع العصر والحياة الجديدة ، وهكذا كان الجوار من النظم البدوية التى أقرها الإسلام ولو إلى حين : ﴿ وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ﴾ (٢) .

* وقرر الإسلام مبدأ الجوار وأخذ به بوصفه وسيلة لحماية النفس من خطر يودى بها من غير طائل ، والإسلام جاء لحماية الفقراء والمستضعفين من جشع مستغليهم ، والجوار لا يعنى إباحة الهرب والجبن فى الحرب ، فهذا هو ميدان الشجاعة حقاً ، وإنما يعنى أنه إذا تحالفت الظروف السيئة على مسلم ، فلا داعى للانتحار وعندما تزول هذه الظروف ويلتحق المسلم بإخوانه المسلمين - كما حدث فى دار الهجرة بالمدينة - حينئذ يستطيع أن يبدي شجاعته وقوته وجلده فى ميدان تتساوى فيه الفرص للجميع ، كما حدث فى الغزوات التى جاءت بعد هجرته صلى الله عليه وسلم .

* ويحسن بعد هذا أن نقرر أن الظروف الصعبة قد اضطرت المسلمين الأول إلى الدخول فى جوار المشركين فكان يعنى إنقاذ المسلمين من شرك الكفار فى وقت لم تكتمل فيه الأسباب للمسلمين ولم يؤمروا بقتال ، بيد أننا نسجل أن البعض قد رد جوار المشركين ، وارتضى بجوار الله ، كعثمان بن مظعون وأبى بكر الصديق رضى الله عنهما ، وهذه حالات فردية .

(٢) سورة التوبة ، آية : ٦

(١) سورة الزخرف ، آية : ٢٣

* ونعتبر الجوار الإقليمي يشبه إلى حد ما اللجوء السياسى فى عصرنا الحديث ، فعندما هاجر المسلمون إلى الحبشة لم يردهم النجاشي مع وفد قرش ، إنما أبقاهم بجواره لأنهم لجئوا إليه لحمايتهم ، كما أكرم وفادتهم . ولعلنا فى نهاية التعليق نقول : « إن اللجوء السياسى الذى يلجأ إليه بعض السياسيين إلى الدول الأخرى يعد نوعاً من الجوار ، فهم يطلبون الحماية فى ظل هذه الدولة ، بل لقد وصل الأمر إلى أن بعض الدول الصغرى كانت تطلب « جوار » الدول الكبرى ، فقد وافقت الولايات المتحدة الأمريكية أن ترفع الكويت أعلام هذه الدولة على سفنها البترولية - أثناء الحرب العراقية الإيرانية (١٩٨١ - ١٩٨٩) من أجل حمايتها من غارات الإيرانيين » .

* * *

المصادر والمراجع

أ - المصادر :

القرآن الكريم .

ابن الأثير - عز الدين أبو الحسن على بن أبى الكرم الشيبانى .

١ - الكامل فى التاريخ - دار الكتب العلمية - بيروت ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م .

ابن هشام - أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب .

٢ - كتاب سيرة النبى ﷺ - دار التراث العربى بمصر .

الألوسى - السيد محمود شكرى البغدادى .

٣ - بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب - مطابع دار الكتاب العربى بمصر .

المقريزى - تقى الدين أحمد بن على .

٤ - إمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأموال والخفدة والمتاع : ت / محمود شاكر - القاهرة ١٣٧١ هـ / ١٩٤١ م ، أبو حيان التوحيدى .

٥ - تفسير النهر الماد - الكتب الثقافية ببيروت ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م .

أبو تمام حبيب الطائى .

٦ - ديوان الحماسة - مطبعة السعادة بمصر ١٣٤٦ هـ / ١٩٢٧ م - المفضل بن محمد الضبى .

٧ - المفضليات ، تحقيق : شاكر ، هارون ، مطبعة المعارف ١٣٦٤ هـ ١٩٤٢ م .

أبو الفضل أحمد بن محمد ، النيسابورى ، الميدانى .

- ٨ - الأمثال - دار المعرفة بيروت ١٣٧٤ هـ / ١٩٥٥ م .
محب الدين أبي الفيض محمد مرتضى الحسيني الواسطي الزبيدي .
٩ - تاج العروس : ت / محمود طماحي ، طبع حكومة الكويت .

ب - المراجع :

- ١ - جواد علي : العرب قبل الإسلام - دار العلم للملايين ببيروت - الطبعة الثالثة .
٢ - محمد علي الصابوني : صفوة التفسير - دار القرآن الكريم - بيروت .

ج - المجالات :

- ١ - المجلة المصرية للقانون الدولي - المجلد الثاني والعشرون .